مُهِمَّاتٌ تربويَّة

رمضان ١٤٤٦ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثامن يوم السبت 8 رمضان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. نبدأ في لقائنا اليوم بالتذكير بهذا الشأن المهم الذي نحن بصدده، طلب العافية التي هي سبب للنجاة في الدنيا والآخرة.

العافية والعفو أمر الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، عائشة -رضي الله عنها-، لو عرفت ليلة القدر وتحرتها أن تسأل الله -عزَّ وجلَّ-، هذا العفو والعافية، الشأن المهم في حياة المؤمن، لو ذاقه الإنسان وعرف مقداره ما ترك سؤال الله -عزَّ وجلَّ-، العافية؛ ولذا كانت هذه المهمات التربوية من أجل الوصول إلى هذه العافية، وهذا الأمر خصوصًا ونحن نرى الفتن تزداد، والإيمان يضعف، وأهل الإسلام يُخطَفون، والأبناء يزدادون بعدًا عن هذا الطريق، فمن أعظم الدعاء والسؤال في مثل هذه الأحوال هو أن نسأل الله العافية. قد مر معنا هذا المعنى ولا زلنا نكرره مستفيدين من خطبة الشيخ بن حميد -حفظه الله- "أن العافية دفاع الله عن عبده، فإن الله يدفع عن العبد كل ضر". ومر معنا أن أنواع العافية: عفو

وعافية ومعافاة. عافية الأبدان وعافية الأديان. فالذي نقصده من خلال هذا اللقاء هو: التذكير بالمهمات التربوية الموصلة للعافية، وأهم هذه المهمات هي العافية التي هي في الآخرة، عافية الأخرة: الثبات عند الموت ويوم القيامة.

وهذا متضمن لعافية الدنيا: عافية من أمراض القلب والبدن وسلامة من الفتن وعافية في الذرية، نسأل الله أن يعافينا في أنفسنا وذرياتنا! فهذا مقصد المهمات التربوية، ولا ندّعي أننا سنحصرها فيما سنذكر لكن الأمر على ما يتيسر. في كل لقاء سنختار من مواطن الآيات ما يكون فهمه والتركيز عليه، وتربية النفس عليه، وتربية الأجيال عليه أمرًا مهمًا مسببًا للعافية.

نبدأ مستعينين بالله في موطن اليوم، وهو من مطلع سورة الأعراف، وهذه المهمة التربوية التي سنناقشها ستكون متصلة بقضية في غاية الأهمية وهي: قضية الصراع بين الإنسان والشيطان، قضية مصيرية، وهو ابتلاء من الله ولله الحكمة البالغة في ابتلائنا بالشيطان، وابتلائنا بوسوسته وما سنعرف اليوم من الكلام عنه. وهو موضوع لا بد من تجديد

العهد دائمًا به، والتذكير به وبيانه؛ لأن غيابه سيكون أثره أن يقع الإنسان في الفتن، وأن تحصل أذية الشيطان في نفسه وفي بدنه وفي ذريته وفي أهله، فتُنزع البركات وتذهب الخيرات، والله المستعان!

سنبدأ أول الأمر بالنظر إلى مطلع سورة الأعراف الذي فيه قاعدة غاية في الأهمية، فقبل أن ندخل على قصة الصراع، نبدأ بمدخل السورة:

ابتدأت هذه السورة بالحروف المقطعة وهي سورة عظيمة، فيها مبدأ عظيم من مبادئ النجاة والعافية، فبعدما ذكر رب العالمين شأن هذا الكتاب العظيم، وكيف أنه نذارة وذكرى للمؤمنين، أتت هذه القاعدة المهمة التي ستدور كل السورة عليها، حتى الخبر عن الصراع بين الإنسان والشيطان سيكون مداره هذه الآية الثالثة في السورة. (**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ**)

قاعدة غاية في الأهمية والعظمة، دائمًا عندك طريقين، دائمًا عندك صوتين، دائمًا ينازعك أمران، ستنتهي هذه

الأمور كلها إلى: (اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)، في كل شأن، في كل قرار، في كل تصور: إما أن تتبع ما أُنزل إليك من ربك، وإما أن تتبع من دونه أولياء، والمشكلة في ذلك أن (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)، قليل ما يتذكر الناس أنهم في كل شأن بين أمرين:

- بين أن يكونوا على هدى من رب العالمين.
- وبين أن يكونوا اتخذوا الشيطان وليًّا، وهذه حال تسبب الهلاك وتذهب العافية.

لذلك في هذه الآية التي هي عماد سورة الأعراف، والله أعلم: (اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) رب العالمين يعرض علينا الشأن حتى يوصلنا إلى كيف أن أهل الجنة يدخلون الجنة، كيف أن أهل النار يدخلون النار، وكيف يحصل حوار بين أهل الجنة وأهل النار، وكيف أن أهل الجنة ينبهون أهل النار أن هذا الأمر إنما كان بسبب تركككم اتباع ما أنزل الله، واتخاذكم الدين لهوًا ولعبًا وترككم أمر الله، بعدما (نَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ

قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)، فالسورة تسير معنا من لحظة بداية آدم -عليه السلام-، وبداية الصراع إلى استقرار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وكيف أن محور القضية هو: أن أناسًا اتبعوا ما أُنزل إليهم من ربهم، وأناس لم يتبعوا ما أُنزل إليهم من ربهم، مع وجود الآيات الدالات على ما أُنزل إلينا من ربنا، ووجود الدلائل الواضحة على حال عدونا؛ لذلك ختم رب العالمين الآية الثالثة بقوله تعالى: (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) فلو تذكرتم، وعرفتم المصلحة، ما آثرتم الضار على النافع، والعدو على الولي. لكن هذه حالة الإنسان؛ قليلًا ما يتعظ وقليلًا ما يتأثر. حين تقرأ هذا المطلع يؤكَّد علينا فيه، ما تناقشنا فيه في اللقاء السابق، من الكلام عن مركزية الآخرة.

لا بد، من أجل أن يكون منا استقامة في الدنيا واتباع ما أُنزل إلينا من ربنا، أن نتذكر أننا لا بد أننا سنلقى ربنا، وستكون هذه الأحداث التي وصفت في هذه السورة وفي غيرها من السور، وتصور أن رب العالمين يقول للخلق

جميعًا، منبهًا: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) قصتك بتفاصيلها لن تقصها أنت، بل رب العالمين سيقصّها عليك، سيقصّ عليك قصتك، ويا لحياء العبد من قصته! هذا الأمر ما يتداركه العبد إلا بالتوبة التي تمحو من قصّته ما يُعاب، ويُستحى منه؛ التوبة التي تمحو ما مضى، فيغفر الله -عزَّ وجلَّ-، بها الذنب؛ التوبة التي فيها معاهدة ألا نعود. وهذه القصة التي سيقصّها رب العالمين علينا بعلم، فهو عالم الظواهر والبواطن (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)، ما كان رب العالمين غائبًا عنا بحال من الأحوال، ما كان ليخفى عليه شيء من أعمالنا، فليكن هذا الأمر على بالنا، ولتكن الآخرة شغلنا. سيقص الله على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا، وأخبرنا -عزَّ وجلَّ-، أنه لم يكن غائبًا عما نفعله أيام ما فعلناه في الدار الدنيا، بل هو -سبحانه وتعالى-، الرقيب الشهيد على جميع الخلق، المحيط علمه بكل ما فعلوه من كبير وصغير، وجليل وحقير، ونسمع في القرآن (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ)، سبحان الله، إلى أن نسمع (هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا).

هذا يؤكد علينا مركزية الآخرة، ولو استطردنا سيأتينا في سورة الأعراف شأن عظيم في مسألة مركزية الآخرة، لكن نصل إلى مقصدنا الذي يبدأ من الآية العاشرة، من هنا تبدأ الإشارة إلى قصة آدم مع عدوه الشيطان، ونحن سنأخذ الجزء فقط الذي فيه بداية الصراع الحاصل، على ما يتيسر؛ نسمع ونقرأ ونناقش ما يتيسر لنا منه، مقصدنا أن نهتم بهذا الأمر، نهتم بموضوع الصراع بيننا وبين الشيطان، خصوصًا أن الناس من كثرة ما أضلهم الشيطان ظهرت هذه الأفكار التي وصلت إلى حد عبادة الشيطان صراحة والتعاطف معه! وهذا كله يأتي من ترك تربية النفس على الوحي. هل تتصور بعد سماع قوله تعالى: (اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)، أن يصل الناس في اتباع الأولياء أن يعبد الناس الشيطان صراحة؟ وأن تخرج فرقة تقول عن نفسها إنها عابدة للشيطان! الله المستعان، فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الحليم فيها حيرانًا. نسمع هذه الآيات ونسأل الله التيسير والفتح والبيان.

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (10) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ)

سمعنا هذه الآيات المباركات وعرفنا بداية القصة التي أخبر فيها -عزَّ وجلَّ-، بقوله: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)، نلاحظ (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) من هنا تبدأ المنّة، رب العالمين يخبرنا عن بداية الخلق؛ كيف أنه -سبحانه وتعالى- خلق الأرض وخلق السماوات، والخبر هنا أنه مكّن لنا في الأرض وجعل لنا

معايش، (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)، هذه المعايش نسمعها في سورة عبس: (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا) إلى آخر الآيات العظيمات، كم ستمع في القرآن قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا)[1] وتسمع (وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)[2] وتسمع (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ)[3]، وتسمع (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)[4]، كل هذه الأخبار العظيمة جاءت تخبرنا عن منّة الله بالتمكين في الأرض، فلا أحد ممكّن في أي شيء؛ في صناعة، في زراعة، في بناء، في اختراع، إلا والله مكّنه، هذه الحقيقة يجب ألا تغيب، مكننا الله وكان الواجب أن نكون من الشاكرين، لكن (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) نلاحظ هذه الخاتمة، ونلاحظ الموطن الذي نحن بصدد دراسته، سيقول عدونا: (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)، هذا ما يريده. فرب العالمين يبين

---

[1] () السجدة: 27.
[2] () إبراهيم: 32.
[3] () طه: 54.
[4] () النحل: 5.

لنا أنه مكن لنا وابتلانا بهذا الصراع، لكن نجح إبليس على كثير من الناس أن يجعلهم أتباعًا له، والله حذرنا وأمرنا (اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)، لا توالوا عدوكم وقد بيّن الله لكم أنه عدوّكم، فبيّن -عزَّ وجلَّ-، هنا قصة الخلق، وهي من المهمات التربوية، لا بد من تذكر آدم -عليه السلام-، لا بد من تذكر التكريم الحاصل في خلقة آدم، والابتلاء الحاصل بعد خلقة آدم -عليه السلام- بالشيطان، وهذا من حكمة الله.

فالله يخاطب بني آدم: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) هنا الكلام عن آدم -عليه السلام-، الله خلق أصلكم وهو أبوكم آدم، ثم صورناكم في أحسن صورة وفي أحسن تقويم، والله علمنا كيف نكمّل بواطننا، فنحن لنا صورة ظاهرية وهي الخَلْق، وصورة باطنية وهي الخُلق، فالله حسّن صورنا الخارجية وجعل صورنا الداخلية أيضًا في أحسن تقويم؛ قابلين للخير، كارهين للشر بفطرتنا. وأنزل على رُسله ما تكمَّل به صورنا الباطنية، ونموذجنا في ذلك: النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- الذي كان خلقه القرآن، يعني صورته

الباطنية كانت مُشكّلة على القرآن، تصوراته -صلَّى الله عليه وسلَّم-، من القرآن، فما أطيب هذا التصوير! صورة ظاهرية طيبة في أحسن تقويم، وصورة باطنية طيبة مستعدة للخير، مُرشَدَة للخير، يتحمل الإنسان تكميل صورته الباطنية، إلا أنه مشغول بصورته الظاهرية، الله المستعان. وفي النساء حدث ولا حرج، وقد سرى الأمر حتى على الرجال! المقصد أن هذه الشؤون التي أخبرنا الله -عزَّ وجلَّ-، عنها في خلق آدم، وفي تكريمه، يجب أن تكون على البال، انظر لقوله تعالى: (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) ثم أمر الله -عزَّ وجلَّ-، الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم إكرامًا واحترامًا وإظهارًا لفضله، وهذا من كرامة آدم -عليه السلام-، فالذي حصل أنهم امتثلوا الأمر فسجدوا كلهم، إلا إبليس أبى أن يسجد له، تكبرًا عليه وإعجابًا بنفسه (لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ).

فرب العالمين يبين لنا أحداثًا تفيد الإنسان المؤمن بالغيب، الذي يعلم أن ربه يُعلّمه هذه الأمور لأجل أن يكون على حذر. مثل هذه الأخبار ما أُتت إلا لتكون على حذر. وهنا نريد أن نؤكد على أن من عداوة الشيطان أن يغيّب هذه

القصة عن أهل الإسلام، فلا يهتمون بها، بل يغيّبها إلى درجة أن يبقى الناس في عمى، يبحثون عن مبدأ خلق الإنسان، فيقترحون اقتراحات عجيبة، ويتكلمون كلامًا لا يقبله العقل، "أصل الإنسان قرد!"، "الكون جاء من انفجار كوني!"، وكلمات ما أنزل الله بها من سلطان. كل هذا حتى تغيب عداوة الشيطان، ويغيب عنا أصل القصة. فالآن أول ما تفاجأ في أن الله لما سأل إبليس: (مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ)، يأتي هذه الجواب المليء بالكبر! يقول: (أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ) وانظر لما يسمى اليوم بالعنصرية، هو قائد هؤلاء في العنصرية؛ لأنه يرى أن عنصره خير من عنصر آدم -عليه السلام-، يقول: (أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)، يعني يعيد الأمر إلى المادة التي خُلق منها، وهنا يتدخل هو، وهو عبد، في أن يفضل شيئًا على شيء، وأن يجعل عنصر النار خيرًا من عنصر الطين، يعارض أمر ربه برأيه، وأصلًا هذا القياس أفسد ما يكون! جعل النار أفضل من الطين من عنده! انظر لمادة الكبر؛ أن يرى نفسه خيرًا من غيره. هذا القياس، كما ذكر العلماء ومنهم الشيخ السعدي:

"إنه من أفسد الأقيسة، وقد ذكر أنه باطل من عدة وجوه، منها: أنه في مقابلة أمر الله بالسجود، والقياس إذا عارض النص، فإنه قياس باطل."

قاس الشيطان هذا القياس، وجعل القياس مقابل الأمر الصريح: "اسجد"، يقول: "لا أسجد لأني (خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)" فجعل القياس معارضًا للنص.

"ومنها: أن قوله: (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث. فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره، والقول على الله بلا علم. وأي نقص أعظم من هذا؟"

"ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق. ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين."

فانظر لهذا الصراع الذي صنعه إبليس، هو من عنده افترض أن الكائنات تتفاضل، وهو ادعى أنه يمتلك

التصنيف، وأنه يرى أنه هو ومادته خيرًا من آدم ومادته، ولما فكر بهذه الطريقة أعطى الحق لنفسه أن يعصي ربه، فتصور هذه الأمور الثلاثة:

أولًا: فكر أن هناك تفاضل بين المخلوقات.

ثانيًا: هو الذي يضع مقياس التفاضل.

ثالثا: جعل هذا التفاضل الذي هو رآه يعطيه الحق في عصيان رب العالمين، أمر خطير!

سنرى ماذا يريد إبليس، بعدما قال هذه القولة قال له رب العالمين: (فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا) يعني أن هذه الجنة إنما هي مكان للطيبين الطاهرين، فلا تليق بالخبيثين المعترضين المتكبرين (فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) المهانين جزاء على كبرك وعجبك؛ الإهانة والذل، وهذا الأمر من حكمة الله العظيمة.

نرى بعد ذلك كيف اختار لنفسه. تصور أن عاقلًا يعرف غضب ربه عليه، فيختار أن يستمر، (قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أعلن العداوة، فأصبح -والعياذ بالله- عدوًا لله، وعدوًا لآدم وذريته، وطلب من رب العالمين أن ينظره ويمهله إلى

يوم البعث، ليس لأجل أن ينجو، بل ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم، ولله الحكمة البالغة. الله جعل الأرض مكانًا للابتلاء ليتبين الصادق من الكاذب، من يطيع ربه ومن يطيع عدوه، (اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ). فلما سأل هذا السؤال، قال له رب العالمين: (إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)، لا بد أن تتصور كيف لعاقل أن يفعل هذا الفعل، إبليس لم يفكر في نجاته على الإطلاق، إنما فكر في إغواء بني آدم، وسنرى أنه يتوعد ويُقسم ويضع لنفسه خطة طويلة المدى لإغواء بني آدم. إبليس سيكون معه فُرُق يكون مقصدها ورغبتها إهلاك الآخرين وليس نجاة نفسهم، يجب أن نفهم أن إبليس رئيس وهناك من اتبعه في نفس الطريقة والتفكير. يصل الإنسان من فساد رأيه ألا يشغله إصلاح نفسه، يشغله إفساد غيره، مشابهًا في ذلك إبليس. ومعرفته برب العالمين وكونه كان في الملأ الأعلى، كل هذا ما نفعه بسبب الشر الذي حصل في نفسه، والكبر يفعل مثل هذا ويفسد حياة الإنسان، والشيطان يحب أن يثير الكبر في نفس الإنسان، وحين تعود نسأل: ما المبرر لأن تدخل في هذا يا إبليس؟ فيكون ما سمعناه من كونه عنصريّ، ينظر

إلى المخلوقات بالتفاضل الذي يضع هو ميزانه، وبعد ما يرى هو تفاضلًا بميزانه، يرتب على ذلك أن هذا التفاضل الذي وضعه يسمح له بعصيان رب العالمين. يا لها من مصيبة عظيمة!

وهكذا السائرون خلفه؛ ينصبون لأنفسهم قوانين وأفضليات، ويرون بمقياسهم أن هذا أفضل، ثم يقبلون أن يعصوا رب العالمين على هذه الأفضلية. وأقرب وأفضل مثالًا: النسوية، حركة بنيت على رؤية أن النساء خير من الرجال، بتفضيل من عندهم أورثهم عصيان رب العالمين، تصور كيف يسير هؤلاء على خطة الشيطان بالضبط، والشريعة جعلت الأفضلية إنما هي للتقوى؛ قال تعالى: (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم)، هذه هي الخسارة وهذا هو الكسب، وليس بسبب عنصر ولا جنس.

وهذا الأمر مؤكد في ديننا، ها هو النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يقول لبني هاشم: «يا مَعْشَرَ قريشٍ! اشْتَرُوا أنفسَكم

من اللهِ، لا أُغْنِي عنكم من اللهِ شيئًا»، يقول لهم: «لا يأتيني النّاس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم»[5]. التفاضل إنما يكون بالكَسْب وليس بالعرق، وانظر إلى الواقع الذي يعيشه الناس لتفهم هذا الأمر، وانظر إلى الكفر الذي وصل إليه بعض من يسمون أنفسهم "مثقفًا" أو "مثقفة" من مثقفي العرب، وصل بهم الاتباع لإبليس أن يجدوا أنفسهم مادحين لإبليس، يقولون عن إبليس إنه ديموقراطي! يفتتح الشاعر منهم قصيدته بقوله: "المجد للشيطان!" طابور طويل من الكتاب والمفكرين انخدعوا بإبليس لدرجة أنهم رأوه أفضل من آدم، كلام مزعج، لكن لنفهم أن هذه من المهمات التربوية، تصور أنهم يحولون رفض إبليس السجود لآدم إلى منقب!، نعوذ بالله من هذا! إلى درجة أن بعض الفرق الذين يحسبون أنفسهم على دين الله، وهم منحرفون في الأصل، لكن لإبليس مكانة عندهم، نعوذ بالله من هذه الأحوال!

الشاهد أننا نعرف هذه القصة معرفة تجعلنا نكون على حذر، خصوصًا عندما نتذكر أن إبليس لما وصل إلى اليأس من رحمة الله توعد بني آدم، أن يقعد لهم الصراط المستقيم،

---

[5]() أخرجه البخاري (4771).

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)، هنا أقسم (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي) الباء هنا للقسم، كأنه يقول: "ما دام أن الغواية حصلت لي، فلن أترك نفسي وحدي، سأغوي هؤلاء (لَأَقْعُدَنَّ لَهُم) لآدم وبنيه كما يقعد قطّاع الطريق على الطريق، (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)" فهو يعترف أن صراط الله هو الصراط المستقيم، وفي نفس الوقت يقسم أنه (سيقعد)، يؤكد هذا الحال منه، كأنه يقول: "أقسم لأقعدن." لن يقعد فقط على الصراط، قال: (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم) يريد أن يحيط بهذا الإنسان ما استطاع لذلك سبيلًا، (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم) من أين سيأتينا؟ (مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ) هذا معناه أن العدو سيلزم كل طريق يسيره الإنسان، سيأتي للناس من الجهات الأربع، وهذا كالتمثيل، بمعنى أنه سيأتيهم بكل الطرق؛ بالتسويل والإضلال، من أي وجه يمكنه أن يفعله، وهذا كله لأجل أن يصل الإنسان إلى هذه النتيجة: (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) لا تجد أكثرهم مستعملين لقواهم وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم في طريق الطاعة والتقرب إلى الله، تجدهم يملكون القوى لكن يصرفونها في غير ما أراد الله. وفي الحديث عن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يقول: «إِنَّ الشَّيطَانَ قعد لابنِ

آدمَ بطرقِه -بكل الطرق- قعد له بطريقِ الإسلامِ، فقال: أتسلِمُ وتذرُ دينَك ودينَ آبائِك؟ قال: فعصاه وأسلم. قال: وقعد له بطريقِ الهجرةِ، فقال: أتهاجرُ وتدعُ أرضَك وسماءَك، وإنَّما مثلُ المهاجرِ كالفرسِ في الطِّوَلِ؟ فعصاه وهاجر، ثمَّ قعد له بطريقِ الجهادِ، وهو جهادُ النَّفسِ والمالِ، فقال: تقاتلُ فتُقتلُ، فتُنكحُ المرأةُ ويُقسَّمُ المالُ؟ قال: فعصاه، فجاهد. قال رسولُ اللهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقًّا على اللهِ أن يدخلَه الجنَّةَ، أو قُتِل كان حقًّا على اللهِ أن يُدخلَه الجنَّةَ، وإن غرِق كان حقًّا على اللهِ أن يُدخلَه الجنَّةَ، أو وقصتْه دابَّةٌ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخلَه الجنَّةَ»[6].

يعني أسلم، فخرج، فهاجر، فجاهد، فحصل له الموت بأي صورة فكانت النتيجة: أن هذا الإنسان عصى الشيطان وقَبِله الرحمن -سبحانه وتعالى-، فأدخله الجنة.

الشيطان يقول: (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)، هذه هي قصة الصراع وهي من أخطر السرديات التي يجب أن تُكرر علينا، وهي من أهم العوائق التي تعيق السائر إلى ربه، لا بد

---

[6]() أخرجه النسائي (3134).

أن نفقه حقيقة المعركة مع هذا العدو بشكل صحيح، لا تعتقد أن عداوته أمر يسير، رب العالمين، كما في سورة فاطر قال لنا: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) يجب أن تتخذه عدوًا. كيد الشيطان ضعيف، وهذا الأمر لا بد أن تفهمه جيدًا، على من كيد الشيطان ضعيف؟ على الإنسان الضعيف، ضعيف الإيمان، ضعيف الاستعاذة الذي يصل بعد ذلك أن يستسلم للشيطان، يجب علينا أن نعرف أن بيننا وبين الشيطان معركة وأنه سيضع لنا عقبات في طريقنا؛ ولذلك نسأل الله -عزَّ وجلَّ-أن يحفظنا "من بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن يميننا، وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا". أولًا لا بد من تكرار هذه الأمور:

الأمر الأول: عداوة الشيطان عداوة ثابتة.

الشيطان عدو فاتخذوه عدوًا، ترك نجاة نفسه لإهلاكك! ليفسد عليك حالك، فهو عدو حاسد حاقد، يريد أن يتخلص منك، وإذا وجدك على طاعة الرحمن اشتد غيظه، وبدأ يترقب أي فرصة من أجل أن ينفث سمومه في قلبك، ومن أجل أن يفسدك، الشيطان يدعوك إلى جهنم، يحرص على

غوايتك؛ لذلك لا يأمرك إلا بالشر ولا يعدك إلا باليأس والقنوط من رحمة الله، فهذا أمر يجب أن يكون منك على بال.

الأمر الثاني: وجب عليك الاحتراس؛ لأنه سيقعد لنا الصراط المستقيم.

الشيطان قاعد لك على كل خطوة تخطوها إلى طريق الله، فيجب ألا تستهِن بعداوته. ولتعلم أن الشيطان بنفسه يقول لرب العالمين: (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) له ظنون فيك؛ لذلك احترس منه، واعرف الداء والدواء، الداء هو الغفلة والجحود، والدواء هو الذكر والشكر. (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) الشيطان بنفسه يحدد الداء، والحل: أن تكون من الشاكرين، انتبه من الجحود، وقبل هذا انتبه من الغفلة. الداء هو الغفلة والجحود والدواء هو الذكر والشكر.

الأمر الثالث: إن الشيطان ضعيف.

وهذا تركناه ورائنا في سورة النساء، (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) فلا نهول من كيد الشيطان ولا نهون منه في نفس الوقت، لذلك نهانا النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: «لا

تقل تعسَ الشيطانُ، فإنك إن قلتَ تعسَ الشيطانُ تعاظمَ وقال: بقوَّتِي صرعتُه، وإذا قلتَ: بسمِ اللهِ تصاغرَ حتى يصيرَ مثلَ الذبابِ»[7]، لا نهوِّل منه، ولا نظهر خوفًا يشلنا، لكن نستعين بالله ونعتصم بالله، ونطلب من الله أن يكفينا الشيطان، ونشعر بوسوسته فنحاول أن نشخّص ولا نترك أي فكرة تستعمرنا، بل نشخّص، نستشير ونسأل، هل هذا الذي نشعر به من وساوس الشيطان؟ لا نترك الوساوس تأكلنا.

الأمر الرابع: لا بد من الاعتصام بالله والتوكل عليه.

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) لا يخيفك الشيطان (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) تستعيذ به، يعيذك، تستجير به يجيرك، وهو أكرم مجير، لن يترك الله المؤمن لعدوه لكن ليجتهد المؤمن في طلب الله أن يعصمه ويحفظه، وليتوكل على الله ليخلصه من كيد الشطيان أيّا كانت صورته: وساوس، صورته تكسيل عن العمل الصالح، تثقيل عن العمل الصالح، استعذ.

الأمر الخامس: لتعلم أن الشيطان لص الإيمان.

---

[7]() أخرجه أحمد (20591).

لكن يمكن أن يكون لصًا فاشلًا، ينتظر منك غفلة ولحظة ظهور حتى يسرق شيئًا من حسناتك وطاعاتك، لكن هذه الوساوس مباشرة تتلاشى إذا انتبهت وتذكرت؛ لذلك في آخر هذه السورة التي في مطلعها نتدارس القصة، في آخرها قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) هذه هي النجاة. إذًا الشيطان لص الإيمان، لكنه لص غير رابح، ما أن يريد أن يسرق حسناتي بفكرة تأتي في قلبي، بإثارة حقد على أحد، بإثارة حسد، بأمور الله أعلم بها، إلا يتذكر المؤمن فيبصر، فيرد نفسه أحسن ما كان من الاستعاذة والاستغفار والتوبة وعمل الحسنات.

الأمر السادس: يجب أن تعرف مداخل الشيطان.

الله أمرنا أن نتخذه عدوًا، كل ما يؤدي إلى هذا الأمر واجب علينا، فكل منا يعرف من أين يدخل له الشيطان، يراقبه كيف يأتي بالأفكار، إن كان صاحب مال يكسله عن الإنفاق، إن كان صاحب علم يكسله عن نشره، وإن كان عنده والدين يكسّله عن برّهم، وإن كان عنده جيران يثقل عليه الإحسان إليهم، لا بد من تصور مثل هذا.

وقد **ذكر أهل العلم إن له عقبات سبع، يجرب يعرض الكفر بالله على الإنسان**، والعياذ بالله. لذلك فلنتعلم ولنتحصن بالتوحيد.

ويجرب معه أيضًا أن **يدخله في البدعة**، وانظر لكل ما هو حاصل في العالم الإسلامي وغيره لترى ماذا يفعل الشيطان، فلنتمسك بالسنة.

وأيضًا يجرب معه فيحاول أن **يوقعه في الكبائر**، فلنتعلم ما هي الكبائر ولنعتصم بالله أن يحفظنا من الزلل ولنتوب دائمًا إلى الله. إذا ما استطعنا في الكبائر، أو حتى **يجمع للإنسان بين الصغائر والكبائر حتى يهلك**، فتأتي العقبة التالية وهي **الصغائر**، وربما قال الإنسان: "هذه صغيرة فيصر عليها"، والنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، قال: «إياكم ومحقراتِ الذنوبِ فإنهُنَّ يجتمعنَ على الرجلِ حتى يُهلكنَهُ»[8] فلا تحقر الصغائر وكن صاحب ورع وتحفظ ويقظة.

[8]() أخرجه أحمد (3818).

ثم إنه **يدخل على الإنسان بالمباحات** فيشغله بالمباحات حتى ينشغل عن الطاعات، فخصوصًا في هذا الشهر المبارك، فلا تسرف في المباحات، لا تضيع وقتك، اعرف فضائل الأعمال من أجل أن تنتفع بعمرك، ستكون لك قصة سيقصها الله عليك، فلنستحِ من ربنا.

ثم يأتي بطريقة أخرى وهي أن يجعلك **تعمل الطاعات المفضولة، وتترك الفاضلة**. وهذا سببه: قلة العلم مع قلة معرفة النفس؛ لا تعرف نفسك ولا تعرف كيف يدخل لك الشيطان في أنه يأتي لك بعبادات وطاعات أنت تهواها وتريدها، ويكون هناك أفضل منها لكن تتركها من أجل هواك. وهذا يحتاج ألا ندخل أمرًا إلا ونحن سائلين الله أن يرزقنا خير الأعمال التي يحبها، وأن يرشدنا إلى محابه -سبحانه وتعالى-، وأن يعيننا على القيام بما يحب ويرضى.

ثم إذا لم يستطعك في هذا كله، أو ربما استطاعك ويزيد عليك أن **يسلط عليك جنده بالأذى؛ باليد واللسان والقلب**، وهذا على حسب مرتبة الإنسان، كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا وأنفع لإخوانه، أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وتسلط

عليه بجنده، حتى أن الإنسان يكون في سرور من شأنه فيدخل عليه الغم، وحتى أن الإنسان يكون راقدًا على فراشه فيؤذيه.

هذه العقبة لا بد منها، نعبد الله بمراغمة عدوه، نعبد الله بمعرفة هذا العدو، نعبد الله بالتوبة، والاستغفار، وكثرة الذكر، والشكر. الداء: الغفلة والجحود، والدواء: الذكر والشكر، ولنراقب أنفسنا ولنزداد علمًا ولنعرف أن قصتنا ستحكى علينا، فلنستحِ من ربنا ونتبع ما أنزل إلينا، ولا نتخذ الشيطان وليًا، بل نتخذه عدوًا كما أمرنا ربنا، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.